

تونس / المغرب الموحد

أولاً: كيف سيستقبل المغاربة مفهوم الجديد؟

مما لاشك فيه أن الازدواجية اللغوية الأمانة كعنوان لهذا المقال هي مفهوم جديد مثله مثل مفاهيمنا السابقة: التخلف الآخر، التعريب النفسي، الفرونكوارب الأنتوية، والرموز الثقافية، الشخصية التونسية المستنيرة. وفي رأينا، فالعلوم الاجتماعية في المجتمعات العربية لا يمكن لها أن تتقدم حقا بدون الظفر بكسب رهان ابتكار مفاهيم وأطروحات ونظريات جديدة مستلة من واقع تلك المجتمعات، وبالتالي فهي صالحة أكثر من غيرها المستورد لفهم وتفسير ما يوجد في هذه المجتمعات من ظواهر وما يجري فيها من أحداث.

نستعمل في هذا المقال كلمة الأمانة بالمعنى الذي ورد في وصف القرآن الكريم للنفس البشرية.

يفيد المصطلح القرآني للنفس الأمانة أنها تلك النفس التي تجنح إلى فعل السوء.

ومن المؤكد أن الأغلبية الساحقة من المغاربيات والمغاربيين خاصة المثقفين والمتعلمين منهم سوف يتعجبون من وصف الازدواجية اللغوية بأنها أمانة بالسوء. ولابد أن يغضب فعلا الكثير من هؤلاء على إطلاقنا مثل تلك الصفة على الازدواجية اللغوية.

وليس بالصعب على عالم النفس الاجتماعي تفسير مثل رد الفعل ذلك من طرفهم جميعا.

فعالم النفس الاجتماعي يرى أن الناس يتعلمون معظم الأشياء بعد ولادتهم في محيطهم الاجتماعي الصغير والكبير.

ومن الواضح أن اللغة هي من أولى الأشياء التي يتعلمها الأفراد في الأسرة والمجتمع. فالمغاربة والمغاربيات تعلموا في عهدي الإستعمار والإستقلال في أسرهم ومدارسهم وجامعاتهم ومجتمعهم بأن تعلم اللغة الفرنسية/الأجنبية مكسب كله كله خير.

فهذا المكسب الخير عندهم هو مسلمة من المسلمات غير قابلة للتساؤل والتشكيك. وبعبارة أخرى، فهم لا يكادون يتصورون أي إساءة يمكن أن تأتي من الازدواجية اللغوية.

ولكن ينبهنا علماء النفس والاجتماع بأن البشر ومجتمعاتهم ليسوا قادرين فقط على تبني الأشياء الخاطئة والعيش عليها وإنما الأكثر من ذلك أنهم مستعدون أيضا للدفاع عنها والمقاومة من أجلها بكل حماس.

ثانياً: الإزدواجيتان اللغويتان اللوامة والأمانة

فبكل بساطة يعني مصطلح الازدواجية اللغوية معرفة الشخص أو المجتمع لغتين: اللغة الأم/الوطنية ولغة ثانية. ومعروف في الظروف العادية أن يكون للغة الأم/الوطنية المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات مواطني المجتمع.

فهذا الصنف من الازدواجية اللغوية يجعل الناس ومجتمعهم يغارون على لغتهم ويتحمسون للدفاع عن لغتهم فيلوم بعضهم البعض حتى على ندرة عدم احترام البعض منهم للغة البلاد.

ونود تسمية هذا النوع من الازدواجية اللغوية بالازدواجية اللغوية اللوامة. فهذه الأخيرة تحرص كل الحرص وبحماس كبير على المحافظة على مناعة اللغة الأم/الوطنية وتطورها ونموها متخذة من أجل ذلك كل السبل الضرورية من توعية مجتمعية باللغة الوطنية كرمز وطني مقدس مثل علم البلاد ومن المطالبة بتبني سياسات لغوية تصون اللغة الأم/الوطنية من انحدار مكانتها نفسيا واجتماعيا إلى المرتبة الثانية أو الثالثة بين أهلها وذويها.

وفي المقابل، هناك صنف آخر من الازدواجية اللغوية يذهب في الاتجاه المعاكس لما رأيناه في الازدواجية اللغوية اللوامة.

نطلق على هذا الصنف الثاني من الازدواجية اللغوية مصطلح الازدواجية اللغوية الأمانة.

إنها تلك الازدواجية اللغوية التي لا تكون فيها للغة الأم/الوطنية المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات مزدوجات ومزدوجي اللغة.

أي أن اللغة الأم/الوطنية لا تحتل المرتبة الأولى عند هؤلاء على المستوى العاطفي والنفسي وعلى المستوى الذهني والفكري وعلى مستوى الممارسة والاستعمال. فعكس ما يتصف به أصحاب الازدواجية اللغوية اللوامة، فإن أصحاب الازدواجية اللغوية الأمانة تجدهم غير متحمسين كثيرا للذود عن لغتهم الأم/الوطنية وغير مباليين إزاء عدم استعمالها في شؤونهم الشخصية وفي ما بينهم في أسرهم واجتماعاتهم ومؤسسا تهم بحيث تصبح عندهم في حالات عديدة لغة ثانية أو ثالثة.

إن ظاهرة الازدواجية اللغوية الأمانة هي ما يلاحظه الباحث في المسألة اللغوية لدى أغلبية مواطنات ومواطني مجتمعات المغرب العربي اليوم.

أفلا يكتب معظم هؤلاء صكوكهم المصرفية/شيكاتهم باللغة الفرنسية بدلا عن اللغة العربية/



د. محمود الثوادي*
m.thawad@yahoo.ca

بأن اللغة العربية هي لغة البلاد المستقلة. ويعني التطبيع هنا أن تصبح العلاقة بينهم وبين اللغة العربية من نوع العلاقة العضوية التي تربط عادة بين المجتمعات ولغاتها الوطنية والمتمثلة في استعمال اللغة الوطنية في كل قطاعات المجتمع، من ناحية، والشعور نفسياً بالاعتزاز الكامل باستعمال اللغة الوطنية والدفاع عنها في دوائر العلاقات الخاصة وفي المجالات العامة من ناحية ثانية. بذلك تتعزز إمكانية اختفاء ظاهرة الازدواجية اللغوية الأمانة الطاغية ليقوى حظ ظهور الازدواجية اللغوية اللوامة لتحل محلها. بذلك فقط يزول شبح استمرار الإستعمار اللغوي الثقافي وكسب رهان الاستقلال الثاني على الساحة المغاربية.

رابعاً: العجز عن التحرر الحقيقي

إن المفاهيم الثلاثة الواردة في طرح هذا المقال تصف وضعا غير طبيعي للغة العربية/ الوطنية في مجتمعات المغرب العربي الثلاثة. فهناك غياب كبير للازدواجية اللغوية اللوامة بين معظم فئات شعوب هذه المنطقة.

وفي المقابل ثمة حضور قوي للازدواجية اللغوية الأمانة المرتبطة شديداً الارتباط بضعف التعريب النفسي عند أغلبية سكان هذه المجتمعات.

وبالتالي فهي مجتمعات تشكومن مشكلة حقيقية تتمثل في علاقتها بلغتها الوطنية. وكيف لا يمثل هذا الوضع مشكلة خطيرة والحال أن اللغة الوطنية هي العمود الفقري لوجود المجتمعات والمحافظة على هويتها ؟

فظغيان سلطان الازدواجية اللغوية الأمانة بين أفراد ومؤسسات البلدان المغاربية بعد أكثر من نصف قرن من الاستقلال لا يبشر بفوزها الحقيقي بالاستقلال التام.

إذ لا يجوز موضوعياً الحديث عن كسب رهان هذا الأخير بينما يستمر فيها الإستعمار اللغوي والثقافي على قدم وساق. إنه إستعمار خبيث وفيروسي يمثل في نهاية المطاف صنارة استلاب وخذش لروح وهوية الشعوب في المغرب والمشرق. فهل تتجح القيادات السياسية والنخب الثقافية وكل الطبقات الاجتماعية في المجتمعات المغاربية في عملية التلقيح ضد فيروس الازدواجية اللغوية الأمانة وبالتالي ضد وباء الإستعمار اللغوي الثقافي المتفشي بين المغاربيين والمغاربيات ومؤسساتهم في عهدي الاحتلال والاستقلال بلا هوادة؟ ذلك هو السؤال كما قال شكسبير. ■

.....*

لغتهم الوطنية؟ أفلا يكاد النساء المغاربيات المتعلمات والمتقنات على الخصوص يستعملن إلا اللغة الفرنسية في حديثهن عن الألوان ومقاييس الملابس وغيرها؟

يوضح هذان المثالان أن معرفة الفرنسية قليلاً أو كثيراً يجعل المرأة والرجل المغاربيين شبه متأمرين ضد استعمال لغتهما الوطنية وذلك لعدم إعطائها أولوية الإستعمال بينهما في البلدان المغاربية، كما يفعل المواطنون والمواطنات في المجتمعات المتقدمة، مثلاً.

ولكي تكشف الحجاب أكثر عن المعالم الأمانة بالسوء في الازدواجية اللغوية بالمجتمعات المغاربية المعاصرة يمكن ذكر بعض العناصر لفهم تشخيصنا لظاهرة الازدواجية اللغوية الأمانة في هذه المجتمعات:

1- إن دساتير تونس والجزائر والمغرب لا تذكر في أولى بنودها إلا اللغة العربية كلغة رسمية ووطنية لها.

2- إن اللغة الوطنية تتطلب الاستعمال الكامل الشفوي والكتابي في المجتمع من طرف الأفراد والمؤسسات. هذا ما نجده في المجتمعات المتقدمة على الخصوص.

3- إن علاقة المواطنين بلغتهم الوطنية ينتظر أن تكون علاقة حميمية بحيث تكون لها المكانة الأولى في قلوبهم وعقولهم واستعمالاتهم فيغارون عليها ويدافعون عنها بكل تحمس ورباطة جأش في الدوائر الخاصة والعامة في المجتمع. وهذا ما لانجده عند الأغلبية الساحقة لمواطنات ومواطني الشعوب المغاربية بعد عدة عقود من الاستقلال.

ثالثاً: ضعف التعريب النفسي في المغرب العربي

إن الباحث في المسألة اللغوية في المجتمعات المغاربية الحديثة يجد فيها حالة ضعف التعريب النفسي لدى أغلبية مواطناتها ومواطنيها. ويعني مصطلح ضعف التعريب النفسي عندنا التالي: لا تحتل اللغة العربية (اللغة الوطنية) في هذه المجتمعات نفسياً وعقولياً المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات معظم المغاربيات والمغاربيين المتعلمين على الخصوص. فمن منظور علم النفس الاجتماعي يمكن القول بأنه يوجد اليوم موقف نفسي جماعي عام لدى جل المواطنات والمواطنين في المجتمعات المغاربية لا يسمح لهم بتطبيع علاقتهم مع لغة دساتيرهم التي تؤكد في أولى فقراتها